٥

هل رأيت ربك .. ؟

وقد سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه :

يأمير المؤمنين ، هل رأيتَ ربك ؟

قال : أوَأعْبُدُ مالا أرى ؟

قيل : وكيف تراه !

قال : لاتدركه العيونُ بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوبُ بحقائق الإيمان[1] .

وهذا التطلع لمعرفة الذات الإلهية نابع من أعماق الفطرة الإنسانية ، كمظهر من مظاهر إحساس الإنسان بالحاجة إلى معرفة حقيقة وجوده وصلته بمبدع هذا الوجود .

---

(١) كتاب « نهج البلاغة » للإمام على بن أبى طالب .

إحساس فطرى تختلف وسائل التعبير عنه ، باختلاف مراتب الفكر الإنسانى وتطوره فى مراحل المعرفة .

يمثل هذا التطور ماجاء فى قصة إبراهيم عليه السلام .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فى ضَلاَلٍ مُبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ [1] قَالَ لاأُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ [2] السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا [3] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [4] .

صورةٌ موجزة فى حياة إبراهيم ، لكنها تمثل أبعادًا مديدة تنتظم تَصَوُّرَ الإنسانية للذات الإلهية على تعاقب العصور وتطور الأفكار .

---

(١) غاب .

(٢) خلق .

(٣) مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق .

(٤) الآيات من ٧٤ إلى ٧٩ سورة الأنعام .

تبدأ هذه الصورة بعبادة الأصنام . وهى مرحلة قاصرة تعتمد على « تجسيم » المعبود بحيث تلمسه الأيدى وتراه العيون !

وحين ارتقى التصورُ الإنسانى للذات الإلهية مرتبةً أخرى ، لم يستطع الناسُ أن يتخلصوا من العبودية لغير الله ولكن بمفهوم آخر ، حيث قالوا :

(مَانَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [1]) [2] .

وهناك عبادةُ الظواهر الكونية التى تبهر الإنسانَ فى مرحلة من مراحل تصوره : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والنار ، والأنهار .

وهناك عبادة القُوَى غير المنظورة التى تبعث فى نفسه الرغبة أو الرهبة ، حيث اعتقد بوجود إله للخير ، وإله للشر ، وآلهة أخرى لمختلف المعانى المؤثرة فى حياة الإنسان .

وسيلةٌ واحدة اهتدت بها البشريةُ إلى الذات الإلهية ، بعد أن جربت مختلف الوسائل ، هى التى تتمثل فى قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام .

(إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

إنها معرفة الله عن طريق النظر فى ملكوت السموات والأرض .. ولهذا قال رسول الله ﷺ :

« تَفَكَّرُوا فى خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تفكَّرُوا فى اللهِ فَتهْلكُوا » .

ولهذا كانت الحجةُ القرآنية على من ينكرون وجودَ الله أو يشركون به شيئًا ،

---

(١) منزلة .

(٢) الآية ٣ سورة الزمر .

وكان التوجيهُ القرآنى لمصادر الإيمان بالله .. هو الدعوة إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وما بَثَّ فيها من دابة .

قال الله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوتِ السَّمواتِ والْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىءٍ)[1] .

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوج [2] . وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ [3] . وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب[4] . ونَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)[5] .

(أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[6] .

---

(١) الآية ١٨٥ سورة الأعراف .

(٢) شقوق وصدوع . أى ليس فيها عيب ولا خلل .

(٣) جبالا ثابتة .

(٤) راجع إلى ربه .

(٥) الآيات من ٦ إلى ١٠ سورة ق .

(٦) الآيات من ١٧ إلى ٢٠ سورة الغاشية .

ويتحدث القرآن عن آيات الله فى الكون والحياة ، هذه الآيات التى تثير الفكر الإنسانى وتقوده إلى معرفة الله والإيمان به فيقول :

(إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتى تَجْرِى فى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيف الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (١) .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ والشَّمسُ وَالْقَمَرُ ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدوا للهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُم إِيَّاه تَعْبُدُونَ) (٢) .

(وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فى ذَلِك لآيَاتٍ لِلْعَالمِينَ) (٣) .

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (٤) .

---

(١) الآية ١٦٤ سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٧ سورة فصلت .

(٣) الآية ٢٢ سورة الروم .

(٤) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ سورة الطارق .

(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُم لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (١) .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجعلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٢) .

ويقول القرآن مصورًا أثر هذه الآيات الكونية عند ذوى العقول البصيرة :

(إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولى الْأَلْبَاب . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفكَّرُون فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا باطِلاً سبحانَكَ ...) (٣) .

وهذا هو الطريق إلى معرفة الله ..

التفكرُ فى ملكوت السموات والأرض بما أودع الله فى الإنسان من عقل وفكر ، وليس التطلع إلى رؤية الله جل جلاله بحاسة النظر .

الاستدلال بالمخلوقات على وجود الخالق .

---

(١) الآية ٦٧ سورة غافر .

(٢) الآية ٢١ سورة الروم .

(٣) الآيتان ١٩٠ و١٩١ سورة آل عمران .

الاستدلال بما يحكم الكونَ من نواميس تجرى به على بصيرة وهدى ، آيةً على التدبير المحكم والقصد الإلهى .

وهذا التفكير يعكس تجاربه على القلب فيثير فيه ألوانًا أخرى من المعرفة هى التى وصفها الإمام على بأنها « حقائق الإيمان » .

ومرة أخرى سُئل الإمام على أن يصف الله كأنه يراه عيانًا ، فغضب لذلك غضبًا شديدًا ، وقال للسائل فيما قال :

« ... فانظر - أيها السائل - فما دلَّك القرآن عليه من « صفته » فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته ، وما كلَّفَكَ الشيطان علمه مما ليس فى الكتاب عليك فرضُه ، ولافى سنّه النبى ﷺ أثره فَكِلْ علمه إلى الله سبحانه . فإن ذلك منتهى حق الله عليك . فاقتصر على ذلك ولاتقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين »[1] .

ذلك لأن الإنسان محكوم فى هذه الحياة بالقوانين التى تحدد مجال قدراته ، كما تحدد صلته بالكون والحياة ، فإذا توهَّم أنه قادر على أن ينفذ من هذه المجالات إلى ماوراءها ، أو أن يتحرك فى نفسه وفى الكون كما تريد أهواؤه ، اصطدم بهذه النواميس الكونية التى تُلزمه حدوده وإلا كان من الهالكين .

إن الإنسان مجالُه أن يعرف الله - سبحانه - بصفاته ، وبآياته ، لابذاته ، وهل يحيط المحدود بغير المحدود ؟

ولكن فى « الطبيعة » الإنسانية نزوعًا إلى اقتحام الغيب المحجوب ، ألَمْ تتحركْ هذه الطبيعة فى نفس موسى حين ذهب لميقات ربه وكلَّمه الله ، فقال الله تعالى على لسانه :

---

(١) كتاب نهج البلاغة .

(رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ)[1] . (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)[2] .

ولقد سئلت عائشةُ ، رضى الله عنها :

« هل رأى محمد ﷺ ربَّه » ؟

فقالت للسائل : لقد قَفَّ شعرى مما قلت ، مَنْ حَدثَكَ أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد كذب ثم قرأت :

(لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[3] .

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) .

ولكنه رأى جبريل – عليه السلام – فى صورته مرتين » ..

ورؤية جبريل على صورته التى تشير إليها عائشة – رضى الله عنها – كانت أولاهما عند بدء الوحى ، والأخرى ليلة المعراج .

هذا وإن من طبيعة الملائكة قدرتها على التشكّل بحيث يراها الناس . ومن ذلك ماذكره عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فيما رواه عنه ابنه عبد الله – وقد ورد ذلك فى فصل سابق – إذ ظهر جبريل فى هيئة رجل شديد بياض الثياب ،

---

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥١ سورة الشورى .

(٣) الآية ١٠٣ سورة الأنعام .

شديد سواد الشعر ، لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منهم أحد . حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفَّيه على فخذيه ، وجرى بينهما حوار عن الإسلام والإيمان والإحسان .

فلما انصرف قال الرسول ﷺ لأصحابه : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم !

° ° °

ونعود إلى مافى النفس البشرية من دوافع فطرية تجعل الإنسان يتجه إلى الله ، حتى بين الذين ينكرون وجود الله ويُلْحِدُون[1] فى آياته ، وهى دوافع كامنة تثيرها الحالات التى يتعرض لها الإنسان فى حياته ، كالخوف والمرض ونقص الأنفس والأموال والثمرات ، وغلبة العدو وظلم القوى ومواجهة الشدائد والمحن . هنالك تستيقظ مشاعر العبودية فتدفع بالإنسان إلى حمى الله يلوذ به ويلتمس عنده العون والحماية والرحمة . وهنالك يرى الإنسان ربَّه تبارك وتعالى متجليًا عليه بعونه وحمايته ورحمته .

يقول الرسول ﷺ :

« احفظِ اللهَ يحفظْك ، احفظ الله تجدْه تُجَاهَك » ..

ويقول الله تعالى مذكرًا بهذه الحقيقة التى يؤمن بها الناس جميعًا وهم فى حالة الفزع ، فإذا ماأصابهم الأمن كان منهم الشَّكور ومنهم الكَفور :

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)[2] .

---

(١) يشكون ويطعنون .

(٢) الآية ٣٣ سورة الروم .

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ [1] دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ [2] ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ [3] خَتَّارٍ كَفُورٍ) [4] .

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) [5] .

وإن الإنسان حين يرتقى ويسيطر على واقعه المادى الذى يشده إلى الأرض ويستعبده بالشهوات ، تصفو نفسه وتتفتح بصيرته على آفاق جديدة فى الفكر والحياة وفى معرفة الله ، ويكتسب طاقات جديدة تعطيه القدرة على تسخير قواه والتأثير فيما حوله لاعهد له به من قبل .

يقول الحديث القدسى : « مَازَالَ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا » .

إنه يصل إلى حالة الاتصال بالله سبحانه ، مَصْدَرِ القوة والضياء ، فيتلقى عنه ويستمد منه على قدر استعداد طاقاته للتلقى والاستقبال ، وحسبنا أن نشير هنا –

---

(١) جمع ظلة ، وهى ما يظل كالسحابة أو الجبل .

(٢) سالك القصد ، أى طريق الحق .

(٣) غدار مخادع .

(٤) الآية ٣٢ سورة لقمان .

(٥) الآية ٦٢ سورة النمل .

ولله المَثَلُ الأعلى – إلى قوانين استقبال الكهرباء ذات الضغوط المختلفة ، وما الإنسان إلا جزءٌ من الطبيعة إن صح هذا المثال .

إن رؤية الله – سبحانه وتعالى – تكون بمعنى مراقبته فى كل فكر أو عمل ، وهو ما يشير إليه قول الرسول ﷺ :

« أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

وهو ماعبر عنه الإمام على – رضى الله عنه – حين قال :

« أَوَ أَعْبُدُ مَالاَ أَرَى » ؟ .

* * *

وإذا كانت قمة الإيمان بالغيب ، وهى الإيمان بالله .. خالقًا ومدبرًا وحكيمًا .. إلى آخر أسمائه وصفاته الحسنى ، فقد اعتبر القرآن الكريم هذه المرتبة أعلى مراتب الإنسانية المؤمنة وجعل الجزاء عليها أعلى مراتب الجزاء .

قال تعالى :

(إِنَّمـا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم)[1] .

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير)[2] .

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَاتُوعَدُون لِكُلِّ

---

(١) الآية ١١ سورة يس .

(٢) الآية ١٢ سورة الملك .

أَوَّاب [1] حَفِيظ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ منِيب . ادْخُلُوهَا بِسَلاَم ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَايَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [2] .

هذا جزاء الإيمان بالغيب فى الحياة الآخرة . وقد بدأنا بالإشارة إليه على غير الترتيب الزمنى الذى يجعل الجزاء فى الحياة الدنيا أسبق منه ، لأن ذلك يدخل فى نطاق الإيمان بالغيب عقيدة وجزاء .

فما هى ثمرات الإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا ، وماهو جزاؤه المقدور ؟ .

إن للإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا ثمرات عاجلة ، أولُها فيما يختص بالإيمان بالله تلك الطمأنينة التى يحسها المؤمن وهو يواجه الحياة بما فيها من قُوى الطبيعة الغلابة وسطوة ذوى القوة والجاه . فهو من إيمانه فى حصن حصين ، وهو حين يهتف فى صلاته عشرات المرات كل يوم : الله أكبر ، تتضاءل فى وجدانه كل صور القوة والجاه والسلطان التى يستعلى بها أى مخلوق ويستطيل .

وهو حين يتعرض لنازلة تصيبه بنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، لايصيبه الجزع ولاتتمزق نفسه غَمًّا وحسرة ، ولكنه يستقبل ذلك فى سكينة المؤمن بقضاء الله وقدره ، ومايزال إيمانه بالله يمده برصيد موفور من الصبر والمصابرة حتى يجتاز المحنة ويستعيض مافقد أو خيرًا منه . وخيرٌ مما فقد أنه يصبح خلقًا آخر بعد أن يكون قد صهرته المحنة وزكَتْ روحه بالابتلاء .

وتثمر عقيدة الإيمان بالغيب ثمرات أخرى .

---

(١) كثير الرجوع إلى الله .

(٢) الآيات من ٣١ إلى ٣٥ سورة ق .

إنها تثمر فى نفس المؤمن « الوعى الكونى » الذى يوثق الصلة بينه وبين الكائنات ويشعره التعاطف والألفة مع الوجود ، فيحس أنه جزء من كل ، يجمعه قانون الجاذبية والتكامل والخلود .

وتثمر هذه العقيدة ثمرتها المقدورة فى نفس المؤمن حين يضع أمام بصيرته مافى الحياة الآخرة من جنة ونار وثواب وعقاب ، فلا يغفو ضميره عن الحق فى علاقته بربه وعلاقته بالناس .

وتثمر هذه العقيدة حين تغلو فى نفسه قيمة هذه الحياة الدنيا ، وقيمته فى هذه الحياة ، لأنه يعلم أنه يُخلق عبثًا وأنه لن يترك سدى ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فهو مطالب بأن يسعى ويعمل وينتج لخير نفسه وخير المجتمع .

وتثمر هذه العقيدة حين يؤمن بأنه فى هذه الحياة الدنيا عابر سبيل ، وأن أمامه حياة أخرى هى مرحلة من مراحل حياته التى بدأت وهو جنين فى بطن أمه ، فلايلهيه يومه عن غده ، ولاينغمس فى اللذائذ والشهوات التى تفسد كيان الفرد وتصيب المجتمع بالانحلال ، ولكنه يستعلى على هذه اللذائذ والشهوات ولايأخذ منها إلا بمقدار ، منطلقًا إلى ماهو أكرم وأجدر بكرامة الإنسان ، تشده المعانى الكبيرةُ لوجوده ، فهو يجاهد فى سبيل القيم العالية بكل مايضىء تاريخ الإنسانية من معانى الإيثار والبطولة والتضحية والفداء .

ثمراتٌ كثيرة تؤتيها عقيدة الإيمان بالغيب فى هذه الحياة الدنيا – قبل الحياة الآخرة – إذا مااستقرت هذه العقيدة فى نفس الإنسان مستلهمًا إياها مما جاءت به رسالات السماء ، ومأأيده العقل ، وكشف عنه العلم فى فتوحاته التى تقطع السبيل على كل إنكار أو مماراة ..

٦

دعامة المؤمن عقله

تقدير العقل والإشادة به ، من القيم الدينية التى تقوم عليها العقيدة السليمة . يقول رسول الله ﷺ :

« لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » .

وهذا الحديث النبوى يبين مالللعقل من أهمية فى حياة المؤمن وعبادته ، فهو يقول إن لكل شيء دعامة يقوم عليها كيانه ، وأساسًا يستند عليه بناؤه . ودعامة المؤمن التى يقوم عليها كيانه وينبنى عليها إيمانه هى العقل . وليس هناك تصور لمكان العقل وارتباطه الوثيق بالإيمان والعبادة أبلغ مما يصوره هذا الحديث النبوى الشريف .

ولهذا كان القرآن الكريم يتجه دائمًا إلى العقل فى الدعوة إلى الله ، وفى إقامة الحجة على المنكرين والضالين . وفى التفريق بين الحق والباطل ، وبين الخطأ

والصواب يقول الله عز وجل :

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ)[1] .

وَيَقُول تَعَالَى : (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِى الْأَلْبَابِ)[2] .

ولذلك حث الله على التفكير والنظر فى ملكوت السموات والأرض وأطلق العقل إلى أبعد الآفاق ليؤدى ماخلق له فى كشف حقائق الكون وأسرار الوجود . فقال عز وجل :

(إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْل وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَل اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّة ، وَتَصْرِيف الرِّيَاح والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[3] .

وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَات جَعَلَ فِيهَا زَوجَيْنِ اثْنَيْن ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاورَاتٌ وجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

---

(١) الآية ٢٨ سورة الروم .

(٢) الآية ٢١ سورة الزمر .

(٣) الآية ١٦٤ سورة البقرة .

صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحِدٍ . وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[1] .

ويقول تعالى فى حق المنكرين الضالين الذين يعطلون عقولهم :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[2] .

وينعى على هؤلاء جمودهم وتمسكهم بمواريثهم الباطلة ، فيقول سبحانه وتعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَايَهْتَدُونَ)[3] .

وأثنى الله على المؤمنين الذين يقوم إيمانهم على العقل والاقتناع إذا ذُكِّرا بآيات الله ، وذلك فى قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[4] .

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ سورة الرعد .

(٢) الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٧٠ سورة البقرة .

(٤) الآية ٧٣ سورة الفرقان .

وكفل القرآن حرية العقل فى اختيار الطريق الذى يؤدى إليه تفكيره السليم وأعطاه المسئولية الكاملة فى ذلك حيث يقول :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ) (١) .

وفى قوله تعالى :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (٢) .

وفى بيان قيمة العقل وارتباطه الوثيق بالإيمان السليم والعبادة الصحيحة ، يقول رسول الله ﷺ : « العقل أصل دينى » ، ويقول : « اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ، تعرفوا ماأمرتم به ومانهيتم عنه » .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ بخير ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله إن من عبادته كذا .. إن من فضله كذا .. إن من أدبه كذا . فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله ، نثنى عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال ﷺ : إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر . وإنما يقرب الناس من ربهم بالزُّلَفِ (٣) على قدر عقولهم .

وهل تكون العبادة الصحيحة إلا عن عقل ووعى وإدراك ؟ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « بقدر عقل المؤمن تكون عبادته » . ذلك لأن العبادة التى تؤدى دون تدبر لحكمتها وفهم لغايتها ، إنما تكون قوالب فارغة من المضمون ، وأشكالا خالية

---

(١) الآية ٢٥٦ سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٩ سورة الكهف .

(٣) الدرجة ، المنزلة .

من المعنى ، وهى بذلك لاتحدث أثرها فى النفوس ، ولا ترقى إلى مقام القبول عند الله .

فالصلاة مثلا ليس للإنسان منها إلا ماعقل ، فى خشوعه وهو واقف أمام الله عز وجل ، وفى تدبره لما يقرأ من كلام الله ، وفيما تتركه من أثر فى حياة الإنسان وسلوكه . فإذا خلت الصلاة من ذلك كله ، وأصبحت مجرد حركات يؤديها الإنسان وهو مشغول القلب منصرف الفكر ، عجولا كأنما يحمل حملا يريد أن يلقيه ويستريح منه ، إن أداء الصلاة على هذه الصورة يجردها من معناها وحكمتها وأثرها فى النفوس .

ولقد رأى الرسول ﷺ رجلا يؤدى الصلاة على هذه الصورة أو قريب منها ، فقال له بعد أن فرغ من صلاته : اذهب فصلِّ فإنك لم تصل .

وقال ﷺ : « ... وجُعلت قرة عينى فى الصلاة » ، وكان يقول لبلال حين يدعوه للأذان وإقامة الصلاة : « أرحنا بها يابلال » . ويجدر بنا أن نقف وقفة متأنية عند هذا التعبير .. إن الرسول يقول أرحنا بالصلاة يابلال ، لأن الصلاة راحة للنفس وطمأنينة للقلب ، ولم يقل أرحنا منها يابلال ، كما يقول ويفعل بعض المصلين الذين يؤدون الصلاة بلا عقل ولاتدبر ولاخشوع .

وأنت حين تعقل عبادة الصلاة وتؤديها على وجهها الصحيح ، متمثلا ذلك فى وقوفك بين يدى الله خمس مرات كل يوم ، لابد أن تنطبع نفسك على مراقبة الله فى كل ماتقول وتعمل ، ولهذا قال الله تعالى :

(إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (١)

وكذلك الأمر فى عبادة الصوم : إنه حرمان يتقرب به الإنسان إلى خالقه ،

---

(١) الآية ٤٥ سورة العنكبوت .

يترك طعامه وشرابه وشهوته امتثالا لأمر الله وابتغاء مرضاته ، ليس عليه رقيب ولاحسيب إلا ضميره . ولهذا جاء فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به » .

وإذا تدبر الإنسان الحكمة من الصوم عرف أن ترك الطعام والشراب ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لتربية الإرادة القوية والخلق المتين ، وإعداد لاحتمال المشقة ومخالفة العادة ، وتعبئة روحية تسمو بالنفس على الأهواء والشهوات .

ولهذا قال الرسول ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فبقدر مايعقل الإنسان من هذه العبادات تكون قيمتها الحقيقية ، وأثرها العملى فى السلوك ، وثوابها الموعود عند الله .

وبالعقل يستطيع الإنسان أن يستنبط أحكام دينه فيما لم يرد به نص من الكتاب أو السنة . وذلك ماجرى عليه الصحابة رضوان الله عليهم وجرى عليه الأئمة والعلماء . ولقد أقر الرسول ﷺ ذلك فقال لابن مسعود ، رضى الله عنه : « اقض بالكتاب والسنة إذا وجدتهما ، فإن لم تجد الحكم فيهما اجتهد رأيك » .

وحين ولى الرسول معاذ بن جبل – رضى الله عنه – القضاء فى اليمن سأله : بم تحكم ؟

قال معاذ : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيى .

وقال ﷺ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » .

والاجتهاد فى الحكم والرأى أساسه العقل السليم . ولهذا وضعت للمجتهد شروط لابد أن تتوافر فيه ليكون أهلا للاجتهاد فى الحكم أو الفتوى . ومن هذه

الشروط أن يكون راشداً عاقلا ، متصفًا بالأخلاق الكريمة ، عالماً بالأدلة الشرعية وماتقوم عليه من علوم اللغة والتفسير والحديث ، وفهم أسباب نزول القرآن ، ومقاصد الشريعة . وكلها شروط يكتمل بها العقل وتتسع آفاقه وتصدق أحكامه .

وهكذا نجد أن مراتب الإيمان ترتبط بمستويات العقل ، وبقدر عقل الإنسان يكون إيمانه ، وبقدر إيمانه تكون عبادته ، ويكون أثر هذه العبادة فى نفسه .

٧

العمل فى ميزان الدين

ليس أدل على قيمة العمل فى ميزان الدين ، من أن الآيات التى تتحدث عن الإيمان والمؤمنين تقرن الإيمان دائمًا بالعمل :

(إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)[١] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)[٢] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانهم)[٣] .

---

(١) الآية ١٠٧ سورة الكهف .

(٢) الآية ٣٠ سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ سورة يونس .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب)[1] .

فالإيمان لابد أن يقترن بالعمل ، لأن العمل ثمرة الإيمان وبرهانه ، وليس الإيمان بالتمنى ، كما يقول الرسول ﷺ : ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .

ولقد قال قوم فرطوا فيما يجب عليهم : نحن نحسن الظن بالله فقال عنهم الرسول ﷺ : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

ذلك أن العمل غاية إنسانية ، وواجب اجتماعى فى الحياة . وهو فى الوقت نفسه من القيم الدينية التى تصل إلى مستوى العبادة ، لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده فى هذه الحياة .

وإذا كان كل من فى الوجود يعمل ، من أعظم الأجرام السماوية التى لاتتوقف لحظة عن الدوران فى أفلاكها ، إلى النملة التى لا يسمع دبيبها على الأرض ، إلى الذرة التى تقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر – وهى فى حركة دائبة تؤلف بين أجزائها الثلاثة « الإلكترون والبروتون والنيوترون » – فإن الإنسان لايستطيع أن يخرج على نواميس الكون والحياة فيعيش بلا عمل ، وإلا لفظته الحياة ونبذه المجتمع ، وتحطم كيانه ، وفقد معنى وجوده .

وفى قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْس إِلاَّ لِيَعْبُدُون)[2] .

تلتقى العبادة والعمل فى معنى واحد ، لأن الإنسان خلق فى هذه الأرض

---

(١) الآية ٢٩ سورة الرعد .

(٢) الآية ٥٦ سورة الذاريات .

ليعمل ، وقد جعلت الدنيا مزرعة للآخرة . خلق لعمارة الأرض ، ومنحه الله الحواس والمواهب ليستخدمها فى ذلك ، فإن هو لم يفعل فقد عطل حكمة الله فى خلقه ، وعصى أمره ، إذ يقول تعالى :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه وَالْمُؤْمِنُون)[1] .

ونحن إذا رجعنا إلى الصورة التطبيقية فى حياة الأنبياء والرسل ، وهم الذين يعطون القدوة والمثل ، نجد الدليل الواضح على قيمة العمل فى ميزان الدين . فقد كانت حياتهم كلها عملا وجهادًا ، ليس فى ميدان الفكر والدعوة فحسب ، ولكن فى مجال العمل اليدوى وغيره من الأعمال .

ألم يعمل نوح فى بناء السفينة ، وداود فى صناعة الحديد ، وإبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت العتيق ، وكان المهر الذى تزوج به موسى ابنة شعيب أن يعمل أجيرًا عنده عشر سنوات ؟ .

وكذلك كان محمد ﷺ يتقدم المسلمين فى بناء مسجد قباء ومسجد المدينة ، ويحمل الأحجار إلى مكان البناء ، فإذا اعترضه أحدهم يريد أن يحمل عنه رده قائلا : اذهب فاحمل غيرها ، فلست أفقر إلى الله منى .

وفى حديث الرسول - ﷺ - إلى جانب عمله مايؤكد هذا المعنى . كان يبشر من أمسى كَالاًّ من عمل يده بالمغفرة ، وكان يقول : « لأن يحمل أحدكم فأسه فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو ردوه » وكان يكرم العامل الذى خشنت يده من العمل فيقول : « هذه يد يحبها الله ورسوله » ويوصى بالمحافظة على حقوق الخدم وكرامتهم ، ويصفهم بأنهم إخوة لمخدوميهم ، ويأمر هؤلاء المخدومين بأن يطعموهم مما يأكلون ، ويلبسوهم مما يلبسون وألا يكلفوهم من العمل مالا

---

(١) الآية ١٠٥ سورة التوبة .

يطيقون ، فإن كلفوهم وجب عليهم أن يعينوهم .

وكان أبو بكر قبل خلافته يعمل فى التجارة ، فلما تولى الخلافة خرج إلى السوق كعادته يشترى ويبيع ، حتى قال له المسلمون : نحن نكفيك حتى تفرغ لمهام الخلافة وفرضوا له كفايته من بيت المال .

وكان عمر يقول : لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبًا ولافضة .

وكان يطرد المتعطلين العاكفين بالمسجد ويأمرهم بالسعى والعمل . قال مرة لأحدهم . من الذى يعولك ؟ قال : أخى . فقال له عمر أخوك أعبد منك .

وهذا هو على بن أبى طالب يصبح فلا يجد فى بيته طعامًا ، وعنده فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ فلا يذهب إلى أبيها يلتمس الطعام ، ولاإلى بيت من بيوت الأنصار ، ولكنه يخرج إلى ظاهر المدينة يلتمس عملا يقتات منه ، ويحصل على طعامه بعرق جبينه ، فيجد هناك امرأة تريد أن تعمل معجنة من الطين ، فيعرض عليها أن يجلب لها الماء مقابل ثمرة عن كل وعاء يحمله ، حتى إذا فرغ من عمله أعطته أجره من التمر ، فينصرف به إلى المسجد يقص على الرسول ﷺ قصته ، فيتهلل وجه الرسول ويأكل من التمر ، ثم يعود على إلى أهله يحمل لهم الطعام ..

إنها صورة تحمل كثيرًا من المعانى المضيئة فى مجال العمل وإعلاء قيمته . على ابن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ والفدائى الأول فى الإسلام ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء . . لا يستنكف أن يكون أجيرًا عند امرأة يحمل لها الماء ، ليحصل على طعامه بعرق جبينه ، ولكيلا يكون عالة على أحد .

والرسول ﷺ يبارك ذلك العمل ويعلن عن رضاه به فيتهلل وجهه ويأكل من التمر الذى أخذه علىّ أجرًا على عمله . . وأى عمل ؟

قال ﷺ :

« إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » .

« إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف » .

« أحل ما أكل العبد ، كسب يد الصانع إذا صنع » .

وقيل لأحمد بن حنبل : ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده وقال : لا أعمل شيئًا حتى يأتينى رزقى ؟

فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبى ﷺ : « إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى » ، وقوله حين ذكر الطير : « تغدو خماصًا وتروح بطانًا » ، فذكر أنها تغدو فى طلب الرزق .

وقال ابن مسعود : إنى لأكره أن أرى الرجل فارغًا ، لا فى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته .

وفى ذم البطالة أيضًا وما تؤدى إليه من الفقر وذل السؤال يقول الرسول ﷺ :

« من فتح على نفسه بابًا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابًا من الفقر » .

وقال معاذ بن جبل : ينادى مناد يوم القيامة : أين بغضاء الله فى أرضه ؟ فيقوم سؤّالُ المساجد .

وقال لقمان لابنه : يابنى ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به .

* * *

ويقول رسول الله ﷺ :

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك أجر » .

وفى هذا الحديث النبوى الشريف تتمثل قيمة العمل وأهميته فى هذه الحياة ، حتى فى اللحظات الأخيرة التى يودع فيها الإنسان وتودع الدنيا كلها الحياة .

ولو قال الرسول ﷺ : إن واجب الإنسان حين يرى القيامة قد أقبلت بأهوالها وهو فى هذا الموقف ، هو أن ينفض يده من شئون الدنيا ، وأن يسارع فى اللحظات الباقية إلى الاستغفار والتوبة والإقبال على الله ، لكان هذا القول متفقًا مع طبيعة الإنسان وطبيعة الموقف . ولكن الرسول ﷺ قال : إن كانت بيد أحدكم فسيلة وقد قامت القيامة ، فاستطاع أن يغرسها قبل أن تدهمه القيامة فليفعل .

نعم ، فسيلة النخل التى لا تثمر إلا بعد سنوات ، يحث الرسول ﷺ على غرسها حتى ولو لم يبق على هول القيامة إلا لحظات ، لأن الإنسان مطالب بأن يعمل ولا يتوقف عن العمل مادام قادرًا عليه حتى نهاية حياته . كما أن الإنسان مطالب بأن يعمل مهما أبطأت ثمرة العمل ، ومهما فاته إدراك جزاء عمله فى هذه الحياة ، لا أن يقتصر الإنسان على ما يجنى ثمرته العاجلة ، أو ما يعود عليه وحده بالخير ، وإلا ما استقام أمر الدنيا ولا توارثت الإنسانية الحياة جيلا بعد جيل ، ولا ضحى الآباء فى سبيل الأبناء ، أو بذل الأفراد جهودهم فى خدمة المجتمع ، ولما جنى اللاحقون ثمرات عمل السابقين ، ولا عمل هؤلاء اللاحقون بدورهم ليجنى من يأتى بعدهم ثمرات أعمالهم . . .

وهكذا يجعل الإسلام حياة الإنسان على هذه الأرض موصولة الأسباب بالعمل الدائم المتجدد ، العمل الذى لا ينقطع حتى ولو تقطعت أسباب الحياة ، لأن هذه الحياة الدنيا موصولة بحياة أخرى لا ينقطع فيها الثواب ، ولهذا قيل إن

الدنيا مزرعة للآخرة ؛ وأن ما يفعله الإنسان هنا لابد أن يلقى جزاءه هناك . إن « الفسيلة » لابد أن تثمر ولو غرسها الإنسان فى آخر لحظات الحياة ؛ ولو كان على أبواب القيامة .

وهذا المعنى ينبع من صميم الإيمان بالله واليوم الآخر . فليست حياة الإنسان على هذه الأرض إلا مرحلة من مراحل حياته التى تبدأ وهو جنين فى بطن أمه ، والتى لا تنتهى بوفاته إلا لتبدأ مرحلة أخرى فى عالم الجزاء والخلود .

ولقد ضل قوم قالوا :

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[1] .

فأبطلوا بذلك قانون الثواب والعقاب ، وأهدروا قيمة الإنسان فى هذه الحياة ، إذ جعلوه كالحشرة الملتصقة بالطين ينتهى أمرها حين تدوسها الأقدام .

ولو كان الإنسان كذلك لتجرد من كل معانى الخير والإيثار ، وحوافز العمل والتضحية ، والتسامى على الأهواء والشهوات ، ولانحصرت آماله ومشاعره فى أضيق الحدود ؛ فهو يحاول أن ينتهب اللذات ، وأن يستأثر لنفسه بكل ما تصل إليه يده بحق أو بغير حق ، ولانقلب المجتمع إلى صورة بشعة من الأنانية والجشع والتمزق والانهيار .

وإنما تصلح حياة الإنسان وتقوى روابط الإنسانية حين يؤمن الإنسان أن الحياة فى هذه الدنيا فترة عابرة ، وأنه من أجل ذلك ينبغى ألا ينفق عمره إلا فيما يفيد نفسه ويفيد المجتمع ، وأنه سيلقى جزاء عمله فى الحياة الآخرة .

بهذا الإيمان والسلوك تطيب نفس الإنسان ويستقيم قصده فى هذه الحياة الدنيا ، وينال الجزاء الأوفى فى الحياة الآخرة . يقول الله تعالى :

---

(١) الآية ٢٩ سورة الأنعام .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)[1] .

ولو أن الإنسان تدبر المعنى الذى تضمنه الحديث الخاص بالفسيلة وغرسها على أبواب القيامة ، وحاول تطبيق هذا المعنى فى حياته ، لطالعتنا صور كثيرة من صور التغيير فى سلوك كثير من الناس .

ونضرب لذلك مثلا . . هذا الموظف الذى بقى على اعتزاله الخدمة عام أو بعض عام ، فنراه قد فترت همته وفقد حماسه للعمل ، وأصبح غير حريص على أداء الواجب أو التفكير فى مشروع جديد يفيد العمل ويرفع من مستوى الأداء والإنتاج ، تاركًا ذلك فى رأيه إلى من يشغل وظيفته من بعده . ولو تدبر هذا الموظف المعنى العميق الذى تضمنه حديث الرسول ﷺ لظل يعمل وينتج إلى آخر لحظة فى حياته الوظيفية .

وهناك حقيقة أخرى تتوارد على الخاطر بهذه المناسبة . . إن هذا الشعور السلبى للموظف أو العامل الذى تفتر همته ويخبو حماسه للعمل قرب اعتزاله الخدمة ، وينعكس على حياته بصورة ضارة ، لما إن يترك العمل حتى يجد نفسه فى عزلة عن الحياة ، لا يشده إليها جهد ولا هدف ، وبذلك تثقل عليه أيامه وتطول لياليه ، ويقضى بقية حياته تحت وطأة العطلة والفراغ .

---

(١) الآيات ٣٠ و ٣١ و ٣٢ سورة فصلت .

فلو أن مثل هذا الموظف أو العامل أدى عمله إلى آخر لحظة بروح متفتحة وهمة متجددة وأمل فى المستقبل غير محدود ، لترك الوظيفة موفور الطاقة قادرًا على استئناف الجهد فى ميادين أخرى يفيد بها نفسه ومجتمعه الصغير والكبير .

• • •

وفى هذا الحديث الشريف توجيه إلى معنى آخر ، هو الربط بين الدنيا والآخرة فى الفكر والعمل ، فلا انفصالية فى مفهوم العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وإنما هو طريق واحد أوله هنا وآخره هناك . يقول الله تبارك وتعالى :

(وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (١) .

ويقول جل شأنه :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢) .

وهذا المعنى هو الذى يجعل الإنسان متصلا بالله فى كل ما يعمل ، يبنى للدنيا وهو يبتغى الآخرة ، يجاهد فى سبيل الله ليعلى كلمة الحق ، ويحمى حوزة الوطن ، ويصون عرضه وماله ، وقد يبذل فى ذلك روحه لأن وراء هذه الدنيا حياة أخرى يطيب فيها الجزاء والبقاء .

---

(١) الآية ٧٧ سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ سورة الأعراف .